4.5 - أهميّة هذا التمييز

1.4.5 - أهميّة هذا التمييز في تحديد خصائص المنهج العلمي الحديث

يكتسي هذا التّصوّر للنظريّة العلميّة في نظرنا أهميّة كبيرة لأنّه يوضح خصائص المنهج العلمي الحديث ويبيّن ما يميّزه من الممارسات العلميّة الّتي سبقته. فضرورة صياغة فرضيات عامّة متناسقة منطقيا فيما بينها توجّه الممارسة الميدانيّة وتؤطرها ثم صياغة منوالات إجرائية تستمدّ شرعيتها من تلك الفرضيات السّابقة تمثّل في ظننا خاصيّة من أهمّ الخصائص الّتي تميّز مولد العلم الحديث أو العلوم الحديثة بداية بالعلوم التجريبيّة.

ولئن كان من البديهي أن هذا التماسك الداخلي بين هذين الضّربين من الفرضيات يمثّل سببا أساسيا من الأسباب التي تفسّر نجاعة العلوم الحديثة الإجرائية فإنّ العلاقة الجدليّة بين الفرضيات العامّة والمنوالات تفسّر هي الأخرى تطوّر العلوم الحديثة ونسبيّتها وخصوبتها المعرفيّة. ذلك أنّ الفرضيات العامّة تسمح ببناء منوالات ناجعة إجرائيّا ولكن بناء المنوالات يمكّن هو أيضا من تعديل الفرضيات العامّة أو مناقشتها أو الإضافة إليها. وتسمح هذه العلاقة المتبادلة بتوسيع تدريجي لمجال العلم ضمن سجال وجدل بين العلماء يؤكد دائما نسبيّة الحقيقة العلميّة وتاريخيّتها.

والّذي نلفت النظر إليه أن هذا المنهج هو الّذي يقف وراء التراكم الهائل للمعارف والتطوّر السريع للعلوم الّذي لم تعرف له البشريّة نظيرا من قبل. وهو في ظنّنا من أهمّ مقوّمات الحداثة ويبدو لنا أن هذا التصوّر يسمح بفهم تطوّر العلوم التجريبيّة عامّة وييسّر عرض تطوّرها. ومهما كان الأمر فإنّ اعتماده قد مكّننا من فهم أفضل لتاريخ اللسانيات وتقديم أوضح لتطوّرها وتفهّم أكبر للمواضيع الّتي احتدم فيها النقاش والسّجال ولخلفيّات أصحابها.